

الفصل الثالث

- من أخطاء المسلمين في فهم الاسلام « التوكل » .
- من أخطاء المسلمين في فهم الاسلام « الرزق » .
- من أخطاء المسلمين في فهم الاسلام « القرآن شفاء » .
- أخطاء مشهورة وتصحيحها « غاية الزواج وهدفه » .
- أخطاء مشهورة وتصحيحها « قوامة الرجل على المرأة » .

obeikandi.com

من أخطاء المسلمين في فهم الاسلام التوكل

صان الله قرآنه عن التحريف . فما بلغ لرسول الله ﷺ عن طريق الوحي هو ما دون في المصحف الذي تداوله المسلمون الأولون من صحابة الرسول ، وتداوله المسلمون من بعدهم جيلا بعد جيل ، حتى اليوم . وصيانة الله لقرآنه الكريم عن التحريف نعمة تميز بها هذا الكتاب السماوي . حتى يبقى على الدوام نورا يهدي به من يشاء : « ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ (١) » وحتى إذا انتكست الانسانية وسيطر عليها ظلام الطفولة في فترة ما ، وهو ظلام الأنانية والسادية ، بقي الأمل في أن تخرج الانسانية من جديد من انتكاسها وظلام طفولتها إلى نور الرشد ومستوى الانسانية الفاضلة ، وهو مستوى الانسانية المتعاضدة على الخير وفي سبيل الوجود المشترك بين الناس جميعا .

عادات غيرت المفاهيم :

وبينما بقي القرآن الكريم مصوناً عن التحريف والتبديل ، لم يبق المسلمون كما كانوا ، ولم تبق جماعتهم اللاحقة هي جماعتهم في فهم الفرقان وفهم ما ترمى إليه مبادئه : وذلك لأنه طرأت على جماعة المسلمين جيلا بعد جيل ، عادات وتقاليد لم تكن للمسلمين الأول . وبمحكم تأثر المسلمين اللاحقين بهذه العادات والتقاليد تغيرت أفهامهم في بعض ما جاء به القرآن الكريم تغيراً يتلاءم مع هذه العادات والتقاليد ، ولكنه يختلف مع أفهام السابقين الذين عاشوا في وحيه . وتبعاً لتغير أفهامهم تغير سلوكهم وتغيرت نظرتهم في الحياة ، عن ذي قبل . وأصبحت المبادئ الإسلامية التي من شأنها أن تحمل الإنسان على السعى والعمل والإيجابية يتخذ منها المسلم الذي أخطأ فهمها ، تسكأة يتسكىء عليها في القعود عن السعى والرائخي في العمل .

(١) الانعام : ٨٨ .

ومن هذه المبادئ التي أخطأ فهمها كثير من المسلمين متأثرين في هذا الخطأ بما لا يتصل بالإسلام من عادات وتقاليد طرأت على جماعتهم : مبدأ التوكل .. والرزق .. وكون القرآن شفاء ..

التوكل هو اتباع الطريق المستقيم :

ونعرض للتوكل كما جاء في القرآن الكريم وعلى نحو ما فهمه المسلمون الأول فكان دافعا قويا لهم نحو العمل في الحياة ، ونعرض كذلك لفهم المتأخرين لإياه على نحو كان سببا لتقاعدهم وتراخيهم وإهمالهم .

ويقول الله تعالى : «... وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ (١)» . فالتوكل على الله هو الاعتماد عليه . والاعتماد على الله ليس بكلمة ينطق بها من يطلب معونة الله ، وإنما باتباع الطريق المستقيم الذي خطته رسالة الوحي ، وهي ما في القرآن الكريم من وصايا ومبادئ وأوامر ونواه . التوكل على الله والاعتماد عليه يتبدى من الأخذ في السبل بعد الأخذ في تنفيذ مشورة القرآن ونصحه . ويقول الله لرسوله الكريم : « فتوكل على الله إنك على الحق المبين » . ويطلب منه التوكل وهو بالفعل قد سلك طريق الحق وهو طريق القرآن . وعندئذ ، أى عندما يأخذ الانسان في تنفيذ نصيح القرآن يكون الله في عونته . وهذا هو معنى قوله تعالى : « فهو حسبه » : أى كافيه العون والتأييد . فعون الله وتأيدته للإنسان مقرون بالأخذ في تنفيذ مشورته ونصحه ، وهو ما جاء به قرآنه الكريم .

هذا ما تعطيه هذه الآية القرآنية وآيات أخرى مثلها جاء فيها طلبه التوكل . وهذا ما فهمه المسلمون الأول . ولذا كانوا غير متقاعدين عن السعى والعمل ، وكانوا غير مترخين ، كما كانوا غير سلبيين في الحياة .

ولكن كثيراً من المسلمين المتأخرين فهموا أن التوكل هو إلقاء بمسئولية

الإِنسان فى السعى والعمل فى الحياة كلبية على الله . وعندئذ يقعد الإِنسان المتوكل عن العمل ، والله حسبه وكافيه فى العون . عندئذ يعينه الله على ماذا ؟ يعينه على القعود عن العمل ؟ يعينه على الركود وعدم الحركة ؟ يعينه على تجميد طبيعته ؟

إن التوكل على الله بهذا المعنى ليس توكل القرآن ولا المسلم الأول . والقرآن إذا فهمت مبادؤه على هذا النحو لا يصلح لتوجيه الإِنسان . وحاشا قرآن الله عن ذلك . فهو « كتاب أنزلناه إليك لتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) » .

والإِنسان خُلق ليعمل وليسعى ، خلق ليتحرك ذات اليمين وذات الشمال ، خلق ليغالب ويقاوم ، خلق ليحيا . وما حياته إلا سلسلة من السعى والحركة والعمل والمغالبة والمقاومة .

والإسلام جاء فحسب هداية لطبيعة الإِنسان ، التى من شأنها أن تسعى وتعمل وتتحرك . جاء ليوجه سعى الإِنسان ويوجه حركته . والتوكل الذى أوصى به للمسلمين هو دافع مؤكد للإِنسان على السعى والحركة والعمل ، دافع آخر على ذلك . لأن المسلم الذى سلك طريق الحق سلك الطريق المأمون الموصل ، وأخذ فى سبيل تنفيذ مشورة القرآن وسار فى هدايته . ومشورة القرآن وهدايته من وحى الله العليم الخبير ، والرؤوف الرحيم . ولذلك لا يضل السالك لهذا الطريق ولا يتعثر من شىء فى ضوء هدايته . وذلك رشد الله وعونه لمن توكل عليه .

من اخطاء المسلمين في فهم الاسلام :

الرزق

يقول الله تعالى في سورة هود: « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ، وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ، كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ^(١) » . وسورة هودتهم أولاً وبالذات بالمدل الإلهي في جزاء الله لأولئك الذين أنكروا نعمه وكفروا برسائنه في المصور المختلفة . وهي لذلك تقص أخبار الرسل السابقين ، وما تحملوه في سبيل أداء رسالتهم ، كما تصور موقف الماندين المنكرين وما حل بهم من جزاء ، يمتثل فيه المدل الإلهي تمثلاً واضحاً .

وإذا كان جو هذه السورة هو هذا الجو فما ذكر مما يتعلق بصفات الخالق ونعمه على خلقه من شأنه أن يوصل إلى تفرده بالعبادة وإقناع البشر بما بدأت به السورة في قوله تعالى: « الْأَلَّ تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ^(٢) » . ومن شأنه أيضاً أن يوضح أن موقف المشرك في العبادة عندئذ موقف المتعنت المتثبت في عناده . وقوله تعالى: « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ... » : آية من آيات هذه السورة التي تعدد خصائص الله سبحانه وتعالى ونعمه بالنسبة لخلقه . ومفادها أن كل كائن يتحرك على وجه هذه الأرض مرتبط في رزقه بإرادة الله إرتباطاً وثيقاً . والله من جانبه يؤكد أنه سيتكفل بهذا الرزق ، على نحو ما جاء في قوله: « عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا » . هو قد تكفل بالرزق لكل دابة على الأرض ، أي لكل كائن متحرك على الأرض . ولكنه يتكفل لهذا الكائن المتحرك بالرزق إن استخدم خصيئته التي اختص بها الخالق ، وهي الحركة . وهذا ما يعبر عنه قوله: « دابة » .

وكان هناك تقابلاً ، أو كأن هناك مقدمة وقيجة . وهما : عندما يتحرك الكائن .

(٢) هود : ٢ .

(١) هود : ٦ .

الذى أعده الله بقوة الحركة ، يتكفل الله له بالرزق . وغير الإنسان من الكائنات المتحركة يتحرك بالفرصة وبدفعها القوى . ودفع الفرصة هو الأصل في الحركة في اتجاه واحد وهو اتجاه تحصيل الرزق . والإنسان أيضاً من الكائنات المتحركة التي تدب على الأرض وتتحرك فوقها ، ولكنه كأن له اختيار وإرادة يستطيع أن يحد في حركته ويستطيع أن يميل وينحرف فيها . ولذا رزقه في سعته وضيقة وفي اطمئنانه في الحياة بهذا الرزق أو عدم اطمئنانه به ، وفي تمتعه به كثيراً أو قليلاً : مرتبط بنوع حركته واتجاهه فيها . وحركته في الحياة لا تسكون ثمرة ثمرة نافعة ويسعد بها إلا إذا كان متبهماً فيها خطوط الرسالة الإلهية .

وقد كانت سورة بونس قبل سورة هود : تحكى من قبل الله تعالى ذلك الاطمئنان النفسى والسعادة والبهجة التي يسعد بها الإنسان المتحرك حركة نافعة ثمرة . وهو ذلك الإنسان المؤمن العامل . ثم جاءت سورة هود تحكى الشقاء الذى يصيب الإنسان الآخر صاحب الحركة غير الثمرة ؛ وهو الإنسان الجاحد بنم الخالق . فالحركة المثمرة إذن ، والسعى المجدى أساسان في الحصول على الرزق وأساسان في قيمة التمتع به .

ولم يكف الإسلام بذلك من المؤمن بإيمانه . بل طلب منه العمل مع الإيمان وهنا نجد آيات القرآن التي وردت في وصف المؤمنين تقرن الإيمان بالعمل كشرط يترتب عليه الثواب أو كتمهيد تعقبه حالة الاطمئنان النفسى . يقول الله تعالى . « فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ^(١) . » . ويقول : « الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ^(٢) . » . ويقول « وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ^(٣) . »

(٢) الرعد : ٢٩ .

(١) النساء : ١٧٣ .

(٣) طه : ١١٢ .

وعمل الصالحات هو كل عمل في الحياة لا انحراف فيه عن النهج القويم . ومن بين الصالحات تحصيل الرزق ، من طريقه المشروع .

هذا هو فهم المسلم الأول في تكفل الله برزق الكائنات الحية ، حسبما ورد في هذه الآية . فهم ذلك الرسول عليه الصلاة والسلام وفهمه صحابته رضوان الله عليهم . وكمن أحاديث تروى في الحث على العمل في سبيل تحصيل الرزق . وقد فضل الرسول حال الذي يؤدي العبادة في غير تزايد ومباينة على حال ذلك الذي يقوم آناء الليل وأطراف النهار تاركاً شأن نفسه على غيره أو مهملأ أمر من يعوله . وأصبح شعار ذلك الوقت : العمل . إن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة .

فهم خاطيء :

ولكن بعض المتأخرين من المسلمين وقف بنظرة عندما ورد في قوله تعالى : « عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا » وأخذ من الآية كلها كقالة الله الرزق لعباده ، وترك أنه في سبيل الحصول على الرزق : عليه أن يسعى ، وأن سعياً مستقيماً ، طبقاً لتعاليم الله ووصاياه . ترك أنه كأن يتحرك ويدب على الأرض وأن واجبه أن يترك ذاته تتحرك وأن يتدخل بإرادته في توجيه حركته فحسب .

فهم بعض المسلمين المتأخرين أنه ينبغي للمسلم كي يحصل على الرزق أن يتردد على المسجد ، أو يكرر دعاءه لله ويستنجد به رافعاً بعينه نحو السماء ، وأنه يكفي أن ينتمى إلى المسلمين بالاسم وينطق معهم الشهادة ، وأغفل أنه يجب عليه أن يعمل وأن يكون في عمله مخلصاً لله فلا يؤذى غيره . أغفل أنه يجب عليه أن يعمل عملاً صالحاً .

إن الله يتكفل بالرزق لمن يسعى وأعلن هذا التكفل في صيغة الإلزام فقال : « عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا » ليحفز الناس على الانتفاع بطبيعتهم البشرية في الحركة والسعي ، وليس ليحول بينهم وبين خصائص طبيعتهم التي خاق البشر عليها . إن الإسلام لا يرتد بالطوائف عمالها . وإنما ينميتها فحسب بالهداية الإلهية في التوجيه .

من اخطاء المسلمين في فهم الاسلام :

القرآن شفاء

يقول الله تعالى : « وَنَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ^(١) » . يمثل هذه الآية يحدد الله جل شأنه وضع القرآن وأمره على نفوس الناس فهو بالنسبة لمن آمن به هدى ، يهديه إلى الصراط المستقيم وهو صراط النفس . التي تتخلص من الأحقاد والآثمة والتي لاتصد عن سبيل الخير ولا تبغى الفساد والاعوجاج في المجتمع الذي تمش فيه . فإذا اهتدت به خرجت من ظلمات الانحراف في الإنسانية سواء في التصور الفكري ، أو السلوك العملي ، وخرجت من ظلمات الضلال في السير والسعي إلى نور الاستقامة واعتدال الانجاء . « آر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ياذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ^(٢) » . وعندئذ تكون النفس التي آمنت واهتدت به قد سلت مما يحيلها إلى نفس مريضة ليس لها الوضع الصحيح لمستوى الإنسانية . وعندئذ يكون القرآن لها شفاء ، عن طريق هدايته إياها .

وإذا كان القرآن لها شفاء فهو رحمة لها ونعمة عليها . وهذا معنى قوله تعالى :
« وَنَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ » .

ولكن هذا القرآن نفسه الذي هو للمؤمنين شفاء ورحمة ، هو للكافر به - من وجه آخر - عامل في زيادة تبعاته بسبب انحرافه عن الاستقامة ، وبالتالي عامل في زيادة خسارته . ذلك لأن الذي كفر به وهدايته وبشوجبه هو في واقع أمره

(٢) ابراهيم : ١

(١) الاسراء : ٨٢ .

متعدِّ للدخول في الوضع الصحيح للإنسانية ، متعدِّ لأن يكون ذا مستوى إنساني رفيع بعيد عن الحقد والأناية وبعيد عن الخطأ في الإدراك ، وبعيد عن الانحطاط في السلوك العملي . فكفره بالأخذ بأسباب الاستقامة والهداية ضاعف وزره وضاعف مسؤوليته في الاستمرار في مباشرة الأخطاء . إذ هو الآن ضم إلى سوء مستواه في الإنسانية الذي كان له ، إصراره على الجود فيه وعدم الأخذ بما ينقله إلى محوط المستوى الصالح ، بل ضم مع ذلك إصراره على الصد عن طريق الخير وسبيل الله ، وإصراره على الاعوجاج والفساد . عندئذ : « فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ . الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا . وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ^(١) » . هو ظالم لنفسه بحرصه على بقائه في المستوى الذيء للإنسانية وظالم لغيره بتعديه المستوى الرفيع فيها ، ويصده بهذا التحدى عن طريق الخير في المجتمع . وإذا أضاف إلى ظلم نفسه ظلم غيره فقد زاد في حسابه خسارته . وهذا هو معنى قوله تعالى : « ولا يزيد - أى القرآن - الظالمين إلا خساراً » . والظالمون هنا هم من شرحهم قول الله تعالى : « الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ » .

والقرآن بهذا المعنى كتاب شفاء للمؤمنين ، أى كتاب هداية إلى الصراط المستقيم ، صراط العزيز الحميد . وكان كتاب هداية لأنه يصور الحق : « إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ - أى معبراً عنه وموحى به - فاعبُد الله مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ . أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ^(٢) » .

ولأنه الحق كان واجب الاتباع ، وكان في اتباعه رحمة ونعمة على المتبع :

(٢) الزمر : ٢ .

(١) الاعراف : ٤٥ .

« وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا ، لعلكم ترحون » . « طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين . هدى وبشرى للمؤمنين . الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون » .

هذا هو كتاب الله كما أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكما فهمه أصحابه رضوان الله عليهم وكما عملوا به : « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ، وبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً^(١) » . القرآن إذن كتاب : من آمن به وحب عليه أن يعمل عملاً صالحاً ، طبقاً لما ورد فيه . فهو كتاب للإيمان والعمل معاً .

اعتقاد خاطيء :

ولكن بعض المسلمين قلد في تحريف وضعه على هذا النحو ، واعتقد أنه كتاب شفاء : على معنى أنه يتداوى به من أمراض البدن إذا مرضت ، وأنه كتاب وقاية لا يتعرض حامله لأذى مادي . وكاف في الحصول على آثاره من الشفاء والوقاية أن يكتب بعض آياته ويذاب المداد الذي كتبت به في قليل من الماء يتعاطاه المريض المحموم ، أو أن يلف المصحف الشريف في غلاف يحمله من يريد التحصن ضد الأمراض وأنواع الإيذاء الأخرى .

نعم القرآن شفاء ولكنه شفاء للنفس من مرض الحقد والأنانية ، وضلال الاعتقاد بالخرافة ، والاعوجاج في السلوك .

نعم القرآن وقاية ولكنه وقاية للنفس من التردى في أمراض الإنسانية ووقاية لها من الايمان بالكهانة والصدفة وكل مايقعدها عن السعي في العمل والحركة وانتضحية في سبيل المثل والقيم . هو كذلك لمن آمن به وترجم إيمانه

(١) الاسراء : ٩ ، ١٠ .

الى عمل . هو كذلك لمن اتحد باطنه مع ظاهره ، فظاهره يعبر عن باطنه ، وباطنه يدفع ظاهره لأن يكون مرآة له . هو كذلك للذين آمنوا وعملوا الصالحات معاً .
ين البدن يصح إذا صحت النفس أولاً . وصحة النفس في صفاتها وقاوتها .
ومهمة القرآن الأولى هي تصفية النفوس وتنقيتها : «والذين آمنوا وعملوا الصالحات
لا نكلف نفساً إلا وسعها ، أولئك أصحاب الجنة ، هم فيها خالدون» ..

« ونزغنا مائى صدورهم من غل تجرى من تحتهم الأنهار ، وقالوا الحمد لله
الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » (١) .

أخطاء مشهورة وتصحيحها :

غاية الزواج وهدفه

يقول الله تعالى : « وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً (١) » .

جعل القرآن الكريم غاية الزواج هي أن يسكن أحد الزوجين إلى الآخر ، أي يطمئن كل منهما إلى الثاني . وعبر عن هذه الغاية بالسكنى - بدل الاطمئنان - ليفيد أن الزوجة هي بمثابة السكن . والسكن من شأنه أن يأوى إليه الإنسان وبالإبواء إليه ينقطع حال التعب والسكد التي تصيبه من حركة الجسم في سبيل السعى . ولكن سكن الزوجية هو سكن نفسى من شأنه - كما يريد الاثنان - أن يهرب النفس الراحة ويدفع عنها القلق . وما أشبه قلق النفس بحركة الجسم في إيجاد العصب ، بل هو أشد منها في إثارة المشقة والألم .

مسكن مادي ، هو البيت والمنزل ، تأوى إليه الأجسام لتستريح وتهدأ بعد حركتها في السعى ، وسكن نفسى معنوى ، وهو الزوجية ، تدخل فيها النفوس لتحصل راحتها وتبعد عنها القلق ، والاضطراب . فالنفس إذا التقت بنفس أخرى ورغبت كل واحدة منهما في الالتقاء بالثانية رغبة صادقة تنسى ما عندها من هم ، وما أصابها من مشقة في سعى ، أو ما حل بها من ضيق . وهي إذن بهذا اللقاء هادئة ، لا يخالجهما قلق الهم والمشقة والضيق ، ومطمئنة لأنها لا تفكر في متاعب صادقتها ، وهي الآن ساكنة ، ولكنها ساكنة إلى من تحب أن تسكن إليه ، وتطمئن إلى لقائه .

هذا هو ما تفيدته تلك الآية الكريمة في تحديد غاية الزواج وهدفه . وإذن

ليس الزواج مجال قلق ومجادلة ، وليس مجال مناقفة ومشاكمة ، وليس مجال مساومة . ليس مجالاً فيه حركة أخذ ورد ، وشد وجذب . لأنه نفسه سكنى أحد الزوجين إلى الآخر .

وأى شيء يخرج الزواج عن هذه الغاية ، يعمّل الزوجية مثاراً للقلق واضطراب النفس البشرية ، يجعلها مثاراً لقلقها في العواطف . واضطرابها في النزاع والمخاصمة لا يقره الإسلام كدين حدد غاية الزواج بما سبق وجعل هذه الغاية آية من آيات الله في خلقه كتلك الآيات الأخرى من مودة الناس بعضهم لبعض ورحمة بعضهم لبعض .

الإسلام يدفع إلى الانسجام ويكره البغضاء والنزاع . يدفع إلى المودة وإلى أكثر من المودة . يدفع إلى الرحمة والإحسان . ولذا لا يقر أن يخرج الزواج عن غايته من السكنى والاطمئنان . وكل تصرف ينمى معنى السكنى في الزوجية ، معنى الاطمئنان ، معنى الرضا ، معنى الثقة بين الزوجين ، معنى المحبة ، معنى السرور بقلبا أحد الزوجين بالآخر — كل تصرف ينمى ذلك هو تصرف محمود من وجهة نظر الإسلام . وكل تصرف يسيء إلى هذه الغاية الإنسانية الكريمة هو تصرف مبغض إليه لا يرضى عنه .

المبدأ العام للزوجية :

وإذا كان الإسلام بعد تحديده لغاية الزواج على هذا النحو قد أباح أن يضم الرجل إلى زوجته .. ثانية فتالفة .. فرابعة — فهو لا يوجب هذا الضم ويفرضه ، بل يرخص به فحسب لضرورة توجيهه . والرخصة بشيء ما من شأنها أن تستخدم بحيث لا تحمل بالعرض الأصلي من مبدأ عام . والمبدأ العام هنا أن يكون هدف الزوجية الوفاق والانسجام وإبعاد الفلاقل والخصومات النفسية . والترخيص إذن بالجمع بين أكثر من زوجة واحدة .. إلى أربع : يجب أن يكون في دائرة هذا المبدأ العام

للزوجية لا يخرج عنه ولا يتنافى معه . ولذا يقول الله تعالى : « . . . فَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ^(١) » . وليس العدل المطلوب هو العدل في الإنفاق ، ولا في إعداد المسكن المادى ، ولا في مرات الزيارة واللقاء وإنما هو قبل كل شئ . في الانسجام وعدم إثارة القلق النفسى ، وعدم الإيذاء بالنزاع والخصومة . ولا يحقق هذا العدل إطلاقاً إذا كان تعدد الزوجات للترفيه والرفاهية أو كان للإفادة من كسب المرأة المادى فى العمل الذى تؤجر عليه ، أو كان لحل أزمة الرجل فى فترة خاصة من فترات حياته اليومية . . . أو نحو ذلك مما من شأنه أن لا يُبقي على الوفاق والاطمئنان بينه وبين كل زوجة من زوجاته وبين كل زوجة وأخرى معها فى عقد زواجه بها . ولذا أوجب الإسلام أن يقصر الزواج عندئذ على واحدة .

والإسلام فى كل شأن يتعلق بتصرف الإنسان بكل أولاً إلى الانسان نفسه : تقدير هذا التصرف فى حدود المبادئ العامة ، ويربط حل هذا التصرف وحرمة بشعور الانسان وإحساسه الداخلى . ولذا يقول هنا : « فَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً » . فجمال أساس وجوب الاقتصار على واحدة : شعور أولئك الذين يقدمون على الجمع بين أكثر من واحدة .

ومن هنا قد يكون ظاهر الجمع بين أكثر من واحدة مباحاً حلالاً ، ولكن فى واقع أمره منكر بغيض إلى الله . وذلك إذا اتقى العدل ، اتقى الانسجام والوقاق ، وحل محل ذلك : النزاع والقلق والاضطراب . لأن هدف الزوجية حينئذ لم يتحقق ، وأصبحت الزوجية سبيلاً إلى الانفكاك فى علاقات الناس بعضهم ببعض ، وسبيلاً إلى التنافر والشحناء ، بدلاً من السكنى والاطمئنان .

والإسلام لم يأت ليحدد كل حالة فردية بين المؤمنين به فى كل حيل من

الأجيال . بل جاء فقط بمبادئ عامة وربط تطبيقها بضير الإنسان الفرد وشعوره النفسى . فإذا أتى فريق من المسلمين وأساء رخصة تعدد الزوجات ، وأخرج الزوجية بذلك عن غايتها السامية فقد أخطأ فى فهم الاسلام وفى تطبيق مبادئه مما .

وإذا جاء آخرون ليسوا مؤمنين به وشرحوا الهدف من تعدد الزوجات بأنه تنفيس لحيوانية الرجل ، وسبيل إلى إشباع متعته الجنسية فقد أغفلوا عمداً : أن الزواج فى الإسلام هو للنفوس قبل الأجسام ، وللقلوب قبل الأبدان ، وللبشرية والإنسانية قبل الحيوانية .

اخطاء مشهورة وتصحيحها :

قوامة الرجل على المرأة

يقول الله تعالى: «الرجال قوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَفْتَقُوا مِنْ أَمْرِهِمْ»^(١). ومعنى أن الرجال قوامون على النساء أنهم راعون لأموالهم في الأمر التي كونوها معاً. قوامة الرجل على المرأة في الزواج هي رعاية وتديبر أمر الزوجية وليست سلطة يستبد بها الرجل. ووكل الإسلام أمر الرعاية والتديبر لشؤون أسرة الزواج إلى الرجل دون المرأة ، لأن المرأة تحمل ، وتلد ، وتحضن من تلد .

وكل هذه أعمال من وحى طبيعة المرأة ومن أخص أنوثتها كطرف ، وحالها إذن دائر بين : الحمل ، والولادة ، والحضانة . وهي حال تشغل كثيراً من فراغها ، وتستنفد الجانب الأكبر من نشاطها وإمكاناتها ، وبالتالي لا تدع لها فراغاً ولا استطاعة لممارسة شؤون الأسرة في الحياة الخارجية ، وتحصيل الرزق في مجال هذه الحياة . وهي الحياة القائمة على الكفاح والمناضلة . والنجاح فيها مرهون بالتمرس والاحتمال .

أما الرجل فلم تمد طبيعته الخاصة ، وهي طبيعة الرجولة ، لأن يشارك المرأة فيما كان خاصاً لها بحكم أنوثتها . ولذا فالوقت لديه لم يشغل بحد ، وإمكاناته ونشاطه لم يستنفداً أيضاً . وهنا كان تكليفه برعاية الأسرة وتديبر أمرها . وعندئذ سيشغل وقته وسيستجه بإمكانياته الإنسانية إلى تلك الرعاية وهذا التديبر .

ولو أن الإسلام أضاف رعاية شأن الأسرة وتديبر أمرها إلى المرأة ، مع

(١) النساء : ٣٤ .

ما تقضى عليها طبيعتها كمرأة من : حمل وولادة - وحضانة - لأجف بالمرأة .
ولأجف كذلك بالرجل .

أما إجحافه بالمرأة فلأنه كلفها فوق طاقتها ، أو بما تضيق به طبيعتها .
وأما إجحافه بالرجل فلأنه لم يقد من طبيعته، وتركه يلهو ويبحث بفراغه وإمكانياته .
والمصير هو إفلاس الحياة الزوجية منذ بدئها . لأنه تكايف ضد الطبيعة البشرية .
فما نظمه الإسلام من جعل رعاية شأن الأسرة وتدير أمرها يقع على عاتق
الرجل وحده هو النظام الطبيعي لشخصية تميزت خصائص كل منها عن الأخرى .
ولهذا عللت الآية القرآنية إسناد رعاية الأسرة في الزواج إلى الرجل بما
يتصل بخصائص طبيعته التي أشرنا إليها ، فتقول : « بما فضل الله بعضهم على بعض
وبما أففقوا من أموالهم » . أى بسبب ما تميزت وفارقت به طبيعة أحدهما طبيعة
الأخر ، وبالتالي بسبب تكفل الرجال بالإفاق على الأسرة الذي هو وليد المفارقة
بين الطبيعتين .

ولأن الإسلام بذلك يريد فقط تنظيم العلاقة بين الزوجين حسب خصائص
طبيعتها ولم يشأ من قريب أو بعيد أن يمتن أحد الطرفين في الزيجة القائمة
بينهما : أكد التكافؤ في الحقوق والواجبات بينهما فقال : « ولهنّ مثل الذي
عليهنّ بالمعروف ^(١) » . فما للنساء من حقوق وواجبات هي مثل التي للرجال
سواء بسواء . وأما قوله في نفس الآية : « وللرجال عليهن درجة » فلم يقصد
من هذه الدرجة التي للرجال على النساء : سوى الرعاية وتدير الأمر ، على ما ذكرت
الآية السابقة : « الرجال قوامون على النساء » .

والتكافؤ في الحقوق والواجبات بين الزوجين هو حتماً تكافؤ بحسب

ما تستطيعه طبيعة كل منهما ، وما هي له مهياة ومعدة إعداداً بدنياً وفسياً .

* * *

إن تنظيم العلاقة بين الزوجين كما أقامه الإسلام على أساس من خصائص الطبيعتين للذكر والأنثى - هو أيضاً لصيانة الغاية من الزوجية ، هذه الغاية التي وضحها الله سبحانه وتعالى في قوله : «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة (١)» . فالغاية من الزواج الاطمئنان النفسى وتأكيد المودة والتعاطف بين الزوجين . وهذه الغاية لا تنمو ، بل ولا تتحقق إذا قصد الإسلام من قوامه الرجل على المرأة أن يكون سيداً والمرأة مسودة ، بالمعنى الذى يحاول فريق من الناس أن يشيعه ضد الإسلام ، أو بالمعنى الذى يريد بعض الذين يخطئون فهم الإسلام أن يطبقوه فى حياتهم الزوجية العملية .

إن الاسلام لم يكره أحد الطرفين فى عقد الزواج على الدخول فيه ، ولم يلزم أحد الطرفين كذلك بالاستمرار فى الحياة الزوجية ، طالما كان هناك خطر مترقب أو محقق . من الاستمرار فيها . الإسلام أراد الحياة الزوجية حياة مطمئة مشتمرة ، أرادها حياة كريمة مهذبة : «فامسك بمرء أو تسريح بإحسان (٢)» ، ومن هنا لا يصح أن يفهم من الإسلام -- إذا ما أسند رعاية شؤون الأسرة وتدبير أمر التوجيه والإفئاق عليها للرجل - أنه يريد للرجل أن يكون مستبداً وأن يكون سيداً ، وبالعكس يريد للمرأة أن تكون مستتلة ومستترقة . وإلا فقيم تمديده لهدف الزواج باطمئنان وتأكيد المودة والرحمة ، وفيه طلبه : «وعاشروهن بالمعروف» .. «ولا تمسكوهن ضاراً لتعتدوا» .. «فامسك بمعروف أو تسريح بإحسان» ؟.

الإسلام لم يسلب بعقد الزواج شخصية أحد الطرفين كما لم يهمل خصائص

(١) الروم : ٢١ .

(٢) البقرة : ٢٢٩ .

(م ٩ - الاسلام)

طبيعتها فيما نظمه من علاقة بينهما . لم تزل شخصية المرأة بعد الزواج هي شخصيتها قبل الزواج ، لها حرية الرأي وحرية القول وحرية الاعتقاد ، وحرية التصرف في مالها الخاص حتى ما يصل إليها من زوجها لا يحل له أن يسترجع شيئاً منه إلا برضاً وطيب نفس منها : « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة — أى عطية — فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً » (١) .

قامت أسرة الزواج في الإسلام للتقارب والتواد والتعاطف، وليست للاستغلال ولا لممارسة شهوة الاستبداد والاسترقاق . وقوامه الرجل على المرأة هي رعايته لأمرها بحكم طبيعته، وتفرغه للحياة الخارجية . وهذا هو الإسلام فيما يريد في تنظيم الأسرة .

(١) النساء : ٤ .